صور من الحياة فى بغداد

للدكتور زكى مبارك

يظن فريق من الناس أن الحياة متشابهة الألوان ، وإن اختلفت البلاد . وحجة هذا الفريق أن الناس متقاربون أشد التقارب فى الغرائز والميول . ويشهد بصحة هذه الحجة أن مذاهب الناس فى ملاعبهم وملاهيهم قد تقترب فى هذه الأيام مما كانت عليه قبل آلاف السنين. وكذلك تقترب مذاهبهم فى فهم الحقائق الأخلاقية والاجتماعية ، بحيث يمكن القول بأن حكماء مصر وبابل والهند والصين فى العصر القديم عبروا عن آراء وأفكار ليست بعيدة كل البعد عما نعرف فى العصر الحديث

وقد دهشتُ حين زرت مدينة رُوَان فى سنة ١٩٢٧ فقد رأيت بعض الأحياء القديمة هناك تشبه بعض الأحياء القديمة فى القاهرة من حيث تخطيط الشوارع وهندسة البيوت

وكذلك دهشت حين زرت بغداد فى السنة الماضية، فقد رأيت فيها أحياء تشبه بعض الشبه حيَّ الغاوودية بالقاهرة ، من حيث إقامة الرواشن وزخرفة الأبواب

به وبتحقيقه مما يوطد سبل التقدم، ولكنها أمور قد تدفع إما إلى اليأس إذا نشلت، وإما إلى الاجرام فى أثناء محاولة تنفيذ أغراضها، فتكون داعية إلى الحق من ناحية. وإلى الباطل من ناحية أخرى، وكذلك الرأي القائل بانكار استطاعة رقى الانسانية وكما لها قد يؤدى إلى الحق الذى فى جانب الاتزان والتؤدة والمحافظة على الحق المستطاع بدل افقده فى سبيل الحق المنشود. ولكنه قد يؤدى من ناحية أخرى إلى الأثرة وتبرير الفساد الموجود لأنه موجود فى وجود أنكر هذا الرأى إمكان إصلاحه . والرأى القائل بالايثار له جانب حق كما أن للأثرة جانباً آخر يُنشد فى تهيئة الآحاد والأفراد بالقوة والاقدام ، وفى قوتهم وإقدامهم قوة للمجتمع الانسانى وإقدام له

وعمل الثقافة فى الحياة هي أن تؤسس الحياة على أساس صالح يوفق بين جوانب الحق والاضداد ، وأن تفصل بين كل جانب من جوانب الحق وما يلائمه من جوانب الباطل

عبد الرحمن شكرى

والحق أن هناك موجات مدنية تغمر العالم من حين إلى حين فتوحّد مذاهبه فى العيش بعض التوحيد . يوضح ذلك ما نراه من طغيان المدنية الأوربية فى هذا العصر : فهى تكاد تحوّل العالم إلى شكل واحد فى الملابس والعادات والمذاهب المعاشية ، وكذلك كان الحال يوم سادت المدنية المصرية والمدنية الرومانية والمدنية العربية

ولكن تشابه الناس فى بعض مناحى التفكير وخضوعهم لطغيان بعض المدنيات لا يمنع من وجود خصائص أصيلة يمتاز بها بلد عن بلد ، وشعب عن شعب

وهل يمكن القول بأن الوحدة السياسية فى قطر من الأقطار تفرض أن يتّسم بوحدة اجتماعية ؟

إننا نعرف أن أهل مصر يختلفون فى كثير من العادات والتقاليد باختلاف المناطق ، ولو شئت لقلت إن عندنا مصرَين : مصر الشمالية ، ومصر الجنوبية ؛ ولكل ناحية من هاتين الناحيتين خصائص ومميزات تتمثل فى أشياء كثيرة منها طرائق التعبير وأساليب الغناء

ونعرف أيضاً أن فرنسا تنقسم إلى أمم وشعوب بالرغم من وحدتها السياسية ، ولكل أمة من تلك الأمم مذاهب فى العيش والتعبير ، ولها كذلك أذواق خاصة فى الطعام والشراب

فاذا انتقلنا إلى العراق الذى نخصه بهذا الحديث لم نجده بدعاً بين الأمم والشعوب ، وإنما نجده يتأثر فى عاداته وتقاليده بما يخضع له من تيارات جوية واجتماعية واقتصادية

وهل يمكن أن يتم التشابه بين أهل البصرة وأهل الموصل فى كل شىء ؟

إن الذى يطلب ذلك يصح فى ذهنه أن يشابه (الصعايدة) و(البحاروة) فى كل شىء ، وذلك غير معقول

تقدّم الموصل فتروعك سنابل الحنطة وهى تتموج فى واسعات الحقول ، وتتقدّم البصرة فيروعك النخيل الذى يعدّ بألوف الألوف

وتدخل بغداد فترى فيها سمات من الشّمال وسمات من الجنوب

* * *

فهل نستطيع بعد هذا التمهيد أن نجد صوراً خاصة من صور الحياة فى بغداد ؟

إن الصور التى تتفرد بها بغداد كثيرة جداً ، ولكن كيف نبرز الملامح من تلك الصور الخصوصية ؟

هنا أشعر بأن الوصف أصعب ضروب البيان ، ولكنى سأحاول رسم ما رأت عيناى من الصور البغدادية

وأبدأ بالحديث عن أذواق أهل بغداد فى تنظيم السهرات

وكلامى فى هذه القضية يحتاج إلى سناد مما قرأتم فى كتب الأدب والتاريخ ، وأنتم قد قرأتم أن البغداديين كانوا مولعين بالموسيقا والغناء . فاعرفوا اليوم أن هذه النزعة لا تزال حية فى بغداد ، ومن النادر أن تقوم سهرة بلا غناء

ويظهر جمال هذه العادة اللطيفة إذا تصورتم ما يقع فى دجلة أيام الصيف . ولدجلة من هذه الناحية منظر أخاذ حين تمسي ملعباً للسفائن الخفيفة الروح التى تحمل أفواج اللاهين واللاعبين وبأيديهم آلات الطرب وفى قلوبهم مشاعل الوجد المشبوب

وأنتم تذكرون أن الجاحظ نص على استكراه المغنّي الوَسط فاعرفوا اليوم أن لذلك صلة بالحياة العراقية . فكل إنسان فى العراق يرى من حقه أن يغنى ، وكان الأمر كذلك لأن جو العراق يهيج الشجون . وقد حدثتكم مرة بأن العراق هو البلد الوحيد الذى لا تنقطع فيه الحمائم عن النواح

ومن أجل هذا أيضاً نص أدباؤهم وفقهاؤهم على آداب الوجد والسماع والشراب ، لأن للسهرات الوجدانية لها فى ماضيهم وحاضرهم مكان ملحوظ ؛ وهم يشدون إليها الرحال من أرض إلى أرض ، وقد يتحملون فى سبيلها ما لا يطاق

ولكن ما هو الغناء الذى يميل إليه البغداديون فى هذه الأيام ؟

عندهم فن من الغناء يسمى الأبزذية ، وهو فى أغلب أحواله غناء حزين ، ولكنهم مع ذلك يصطنعونه فى الأفراح ، والحجاز بين الفرح والحزن حجاز دقيق عند من يعرف أن العراق حين يطرب قد تجود عيناه بالدمع السخين

وقد كانوا فى الأعوام الأخيرة بأغانى أم كلثوم ، كانوا بها كلفاً شديداً جداً ، وهم يعلنون عن سهراتها فى جرائدهم بالمجان . ولشهراتهم فى الهيام بأغانى أم كلثوم قصائد جياد

ولا يبعد عندي أن يكونوا نسبتها إلى العراق بعد حين ، وأم كلثوم فيما يظهر سرقت حنجرتها من الحمائم الموصلية. والله أعلم!

ولم يكن أهل بغداد يطربون لأغانى عبد الوهاب . ولذلك سبب يحسن روايته فى هذا الحديث

كان عبد الوهاب زار بغداد فى عهد الملك فيصل ، طيب الله ثراه ، وكان وقع فى غلطة ذوقية ثار لها البغداديون ، كان لقيهم بعظهر من الارستقراطية لا يرتاحون إليه فانصرفوا عن أغانيه كل الانصراف

ولكن تغير الحال حين رأوا فلم « يحيا الحب » فأحبوه إلى حد الجنون

ويظهر أن السيدة التى غنت أنشودة البرتقال هى السبب فى انجذاب البغداديين إلى عبد الوهاب، فتلك السيدة سريانية الملامح وهى تشبه ليلى فى تقاسيم الوجه وفخامة الصوت

* * *

أترك هذا وأنتقل إلى صورة ثانية

قلت مرة إن أنهار العراق مسمكة جداً ، فاعرفوا اليوم أن عندهم لوناً من الطعام هو السمك المسقوف

والسمك المسقوف مشهور جداً فى بغداد ، ويقص عليه فى الدعوات كأنه من غرائب الأشياء

ولكن السمك المسقوف له تقاليد يعرفها أهل بغداد ، فهو لا يؤكل فى كل وقت وفى كل مكان ، وإنما يؤكل بالليل وفى الفضاء

وإنما سمى مسقوفاً لأنه يوضع فوق قضبان من الحديد ثم تشب من حوله النار فينضج بالحرارة ، كما يصنع من يشوون اللحم فى محل (الدهان) إن كنتم رأيتموه

وفى دجلة جزيرة صغيرة ينحسر عنها الماء بعد الفيضان ، وهم يسمونها جزرة ، وأهل بغداد يختارون هذا المكان لأكل السمك المسقوف فى ليالى الصيف، ويظهر أنه كان مجال اللهو والطرب منذ أجيال طوال ، فهو يواجه الكرادة ، والكرادة فيما يظن كثير من البغداديين محرفة عن كلمة واذ التى قال فيها أبو نواس :

قالوا تنسك بعد الحج قلت لهم
أرجو الاله وأخشى طير نابإذا
أخشى قُضيّب كرم أن ينازعنى
رأس الخطام إذا أسرعت إغذاذا
إن سلمتُ وما نفسى على ثقة من السلامة لم أسلم ببغدادا

ما أبعد الرشد ممن قد تضمنه قطربل فقرى بنا فكلواذا

والتى دعا عليها مطيع بن إياس فقال :

حبذا عيشنا الذى زال عنا حبذا ذاك حين لا حبذا ذا
زاد هذا الزمان شرا وعسراً عندما إذ أحلسنا بغـــداذا
بلدة تعطس التراب على النا س كما تعطس السماء الرذاذا
خُرِّبت عاجلاً وخرَّب ذيرا نه رش بأعمال أهلها كلواذا

وقد بيت ليلة لأكل السمك المسقوف فى تلك الجزرة ، وكانت سهرة لطيفة فى ليلة قمراء ، ويظهر أن النسيم أراح أعصابى فغلبنى النوم ونحن عائدون فى السفينة ، ثم استيقظت مذعوراً على صراخ النساء فظننت أن السفينة أشرفت على الغرق ، ثم ظهر أنها اصطدمت بالأرض ، فضحكت وحمدت الله على النجاة !

وإنما نصصت على هذه الصورة لتعريفكم بأن لأهل بغداد ألوانا من الطعام تغاير الألوان المصرية ، والفرق بعيد جدا بين ألوان الطعام فى القاهرة وألوان الطعام فى بغداد . والظاهر أن المائدة المصرية الحديثة منقولة عن المائدة التركية ، ولا كذلك المائدة العراقية فلها مذاق خاص بأهل العراق ، وربما كان لها اتصال بما يتذوق الفرس والهنود

قد تقولون : ولكن أكل ما تختص به بغداد هو الطعام والشراب والغناء ؟

إن قلتم ذلك فانى أجيب بأن لبغداد خصائص غير هذه الخصائص ، منها الجد الرصين الذى يتمثل فى تناول الحياة من نواحيها العنيفة فى الكفاح والجهاد

وأؤكد لكم أن البغداديين صبروا على ما لم يصبر عليه أصدق الرجال

صبر البغداديون على بلايا كثيرة أخفها الأوبئة والطواعين ، وصبروا على مكاره الدهر وتصاريف الزمان

والبغدادى له لحظات بؤس يواجه فيها نفسه وعمومه ورزاياه ، والشعور بالكرب هو أخص ما يلازم البغدادى حين يجلس وحده فى المقهى أو فى البيت ، وهذا الحزن القاتل الذى يساور أهل بغداد من حين إلى حين هو الذى يجعلهم أقرب الناس إلى الغريزة الانسانية ، وهل يسيطر الحزن إلا على كبار القلوب ؟

وأعيذكم أن تظنوا ذلك الحزن علامة من علامات اليأس . لا ، فالبغدادى يأنس بحزنه ليتخذ منه ذخيرة لمواجهة الخطوب . وماعرف البغداديون مواقع النصر فى التاريخ إلا فى أعقاب الأحزان

وتفسير ذلك سهل : فالحزن الموجع هو الذى يحمل الرجل على أن يستميت ويستقتل ويستميت

والحق أن البغدادى يسرف فى الفرح ويسرف فى الحزن ، ومن هذه الطبيعة المزدوجة استطاع البغداديون أن يكونوا من أسمح الناس وأشجع الناس

وما وقع بصرى على رجل من أهل بغداد إلا تألمت وحزنت ، لأنى أرى الدهر طبع على وجوههم سمات الحزن الدفين ، ثم يخف ألمى وحزني حين أتذكر أن تلك الوجوه الشواحب تعرف كيف تصبر على مواجهة الخطوب

وما كانوا جميعا مكروبين ولا محزونين ، ولكن الأقدار أبت أن تسبغ عليهم ثوب الصفاء ، ليكونوا كأشجار البادية التى تقاوم العواصف وتصبر على الظمأ والقيظ بلا توجع ولا أنين

ولكن ماهى الصور التى يدفع بها العراقيون تلك الموجعات ؟

للعراقيين أساليب كثيرة فى جلب المسرات إلى قلوبهم ، منها الاشتغال بالفروسية والتأهب للحرب ، فمن أعظم الملاهى عند الشبان العراقيين فى هذه الأيام أن يكونوا طيارين وجنوداً وضباطا فى الجيش ، ويظهر هذا اللون من اللهو فى أجل مظاهره حين يُستعرَض الجيش أو حين يقوم سباق الطيران

وما أقول إن هذا النوع من أنس النفس بمظاهر القوة خاص بالعراق ، لا ، فهو موجود فى كل أرض ، ولكن إقبال العراقيين عليه يتسم بسمات من الروعة تومئ إلى من يراه أنه من خصائص أهل العراق

ومن كان فى ريب من صدق هذه الحقيقة فليتصل بالراديو العراقى مرة ليسمع بعض الأناشيد الوطنية أو العسكرية ، فان فعل فسيعرف أن الحماسة فى صدور الشبان العراقيين حماسة رائعة جدا ، وأنها صادقة كل الصدق لا تكلف فيها ولا افتعال

ومن هذه النزعة نشأ عند العراقيين عيب جميل وهو الغرور القومى ، فالعراقيون يعتقدون اليوم أن جيشهم أقوى جيش فى

في الشرق ، ويندهشون حين يسمعون أن مدرسة الحربية في القاهرة أعظم من المدرسة العسكرية في بغداد . وقد نشرت إحدى جرائدهم مرة أن مصر أوفدت أربعة شبان ليتعلموا في المدرسة العسكرية عندهم ، فصدقوا الخبر وعلقوا عليه في المجالس والأندية والجرائد

وترجع هذه السذاجة الطريفة عند الجمهور العراقي إلى منزع جميل هو قوة الروح المعنوي هناك

وهذا الروح تمده روافد كثيرة في العراق يصدر بعضها عن المدارس وبعضها عن الجمعيات والأحزاب

ويجب أن أنص في هذا الحديث على ظاهرة نفسية كاد يتفرد بها العراق، وهي إلحاحه على وجوب الاصراع في تكوين الوحدة العربية ، فهم يتكلمون ويخطبون ويكتبون كل وقت في تأييد هذه القضية ، ويتمنون على أسلوبهم في السرعة أن يتم ذلك بعد يوم أو يومين

وهذه الظاهرة تفسر ظاهرة أخرى لا يفطن إليها كثير من الناس

وبيان ذلك أن الصحافة العراقية لا تملك حرية التعبير في كثير من الأحيان

والذي تصل إلى أذنه أخبار القيود التي تعانيها الصحافة العراقية يتوهم أن العراق يعيش في ظل الجور والاستبداد

والواقع غير ذلك . الواقع أن الحكومة العراقية تعرف الفورات التي تصطرع في أنفس الشبان ، وتعرف أنهم يتسامون إلى أغراض لا تتحقق في عام أو عامين ، فترى من الواجب أن تحمي أولئك الشبان من النزعات المتطرفة التي يخرج لهيبها من الجرائد والمجلات

والواقع أيضاً أن حرية الصحافة في مصر تؤذي كثيراً من أهل الشرق ، فهم يتوهمون أننا صرنا أعظم منهم لأننا نملك من الحرية الصحفية ما لا يملكون ، ولو أنهم تدبروا لعرفوا أن حرية الصحافة في مصر لا تؤذي أهل مصر إلا قليلا ، لأن المصريين عرفوا مصايرهم السياسية والاجتماعية منذ أعوام ، وهم لا يستوحون الجرائد في كل وقت، ولا ينزعجون حين يقرأون غرائب الاتهامات في الجرائد والمجلات بفضل ما درجوا عليه من نقد الأخبار والأحاديث

وهذا الذي أقوله يفسر الخبر الذي قرأته في جرائد العراق منذ أسابيع، فقد أصدرت وزارة المعارف العراقية منشوراً يحرم على المدرسين أن يتعرضوا لتفسير الشؤون العلمية في ساعات الدروس

وليس في هذا المنشور شيء من الغرابة، لأن المدرسين ممنوعون من الخوض في السياسة في جميع البلاد، ولكن تأكيد هذا المعنى من وقت إلى وقت شيء يحتاج اليه المدرسون في العراق

قد سمتم أشياء كثيرة عن العراق في هذا الحديث، منها الجد الصارم ومنها المزاح المقبول ، فاسمحوا لي أن أضيف إلى الصور السوالف صورة أجل وأروع ، وهي اهتمام أهل العراق بأخبار أهل مصر وشغفهم بأن يسمعوا ما يسرهم عن هذه البلاد

فمن تقاليد الشبان والكهول في العراق أن يقرأوا المجلات المصرية وأن يستمعوا ما يأتي في الاذاعة المصرية ، ومنهم من يعرف تخطيط القاهرة وإن لم يرها مرسومة في خريطة لكثرة ما يتأثر بالأوصاف المبثوثة في الجرائد والمجلات .

إن الشبان في العراق يتأثرون خطوات إخوانهم في مصر ويتمنون لهم المزيد من نعمة الصحة والعافية

فيا أبناءنا في المدارس المصرية ، تذكروا ، ثم تذكروا

تذكروا أن لكم إخواناً في الأقطار العربية والإسلامية ، وهؤلاء الاخوان يسألون عنكم في كل وقت ، ويتمنون أن تتسع آفاق أذهانكم فتعرفوا أنكم لستم غرباء في الشرق ، وأن الفتى منكم إذا شرّق وجد أهلا بأهل وإخواناً بإخوان

إن الشرق يدعوكم إلى أن تتعرفوا إليه كما يتعرف إليكم، فليكن من أمانيكم أن تزوروا الحواضر العربية والاسلامية وأن تعقدوا صلات المودة والاخاء مع إخوانكم في الشرق

تذكروا يا أبناءنا في المدارس المصرية أن الوطني الصادق هو الذي يخلق لوطنه صداقات وموداّت ، فكونوا أوفياء لهذه المعاني في خدمة الوطن الغالي

والله يتولاكم برعايته ، ويسبغ عليكم ثوب العافية في العزائم والضمائر والعقول

« مصر الجديدة » زكي مبارك